5- PAUL AZAN – conquête et pacification de l'Algérie – librairie de France- Paris – 1929 P. 407.

6–يحي بوعزيز – نفس المرجع – ص 310.

7-Malte Brun (V.A)-résumé historique et géographique de l'exploration de Gerhard Rholfs an touat et in Salah – Paris 1866 – P 67.

8–إسماعيل العربي – الصحراء الكبرى و شواطئها – ص 101.

9-A.Bernard et Lacroix –la pénétration Saharienne –Gouvernement Général de la France – Alger . 1906 – P.13 – 14.

10–اسماعيل العربي – نفس المرجع – ص .70

11–محمد العربي الزبيري – مقاومة الجنوب للإحتلال الفرنسي – ش.و.ن.ت. الجزائر – 1972 – ص.32

12–ابراهيم مياسي – توسع الإستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري – منشورات م.و.م– 1996 – ص 48.

13-Henri Lhote – les touaregs du Hoggar– lib. Payot– paris– 1944–P.328-329.

14-G.O. Meynier - la pacification du Sahara et la pénétration Saharienne – Pub. Du Comité Nat. Métrop. Du Centenaire –Alger – 1930 – P. 11.

15–اسماعيل العربي – نفس المرجع – ص 88.

16–اسماعيل العربي – نفس المرجع – ص 90-91./ G.O. Meynier – op-cit P. 10

17–ابراهيم مياسي – نفس المصدر – ص 59 – 60.

18–يحي بوعزيز – نفس المرجع – ص .315

19–أندري بريتان و آخرون – نفس المرجع – ص .389

20–نفسه – ص 389.

21–نفسه – ص 385 – 386.

تجربتنا مع الرواية الشفوية.

د/ عبد القادر خليفي

التعريف بالموضوع:

تتمثل هذه التجربة في رسالتنا لدكتوراه الدولة التي ناقشناها خلال السنة الجامعية 2001/2000 والموسومة بـــ: "المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة"، والتي قسمناها إلى

بابين: الباب الأول ومضمونه تاريخي يرتبط بمسيرة الشيخ من خلال تزعمه للطريقة الشيخية من جهة وزعامته للجهاد والمقاومة من جهة أخرى، والباب الثاني وهو عبارة عن تحليل للنصوص والروايات الشفوية التي تم جمعها من الميدان على أساس موضوعاتي.[1]

إنّ الرسالة التي حضَّرناها، هي عمل ميداني تطلب منا جهدا وإرادة كبيرتين، لاتساع الرقعة الجغرافية التي كانت ميدانا للحركة، وهي المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر، ولتوزع السكان عليها توزعا كبيرا، وتوطن آخرين في مناطق متعددة من القطر الجزائري والمغربي وصعوبة معرفة أماكن تواجد الرواة ذوي القدرة على الحفظ والرواية المتقنة، كما أنّ الفرد الواحد لا يمكنه مهما أوتي من قوة وجَلدٍ أن يلُمَّ سوى بالجزء اليسير مما كان يمكن الوصول إليه فيما لو قام بذلك فريق من الباحثين يتوزعون على مختلف الجهات، بعد أن يتقاسموا العمل فيما بينهم مع التنسيق الدائم واللقاءات الدورية، إلى جانب توفر الإمكانيات المادية لتحقيق أكبر النتائج. وقد لاحظنا ثراء الموروثات الشعبية لدى الفئة النسوية، إلاّ أن تمسك السكان بالعادات والتقاليد ومنع المرأة من الاتصال بالرجل الأجنبي قد أثر سلبا على النتائج التي كانت مرجوة.

إن مقاومة الشيخ "بوعمامة" هي إحدى تلك المقاومات الشعبية المسلحة الجزائرية التي واجهت الاستعمار الفرنسي بكل قوة معبرة عن رفض الشعب الجزائري للسيطرة الفرنسية

---

* أستاذ محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر–قسم التاريخ–جامعة وهران.

ومحاربة تلك التبعية التي حاول الفرنسيون إرغامه عليها؛ وما ذلك إلا دليل على تلك الهوة التي تفصل بين شعبين وحضارتين مختلفتي المصادر والخصائص.

لقد وقع اختيارنا على هذا الموضوع لما تكتسيه شخصية الشيخ بوعمامة من أهمية في تاريخ الجزائر، حيث تزعمت حركة شعبية قامت للدفاع عن الهوية الأصيلة للشعب الجزائري. ودراسة مأثورات هذه الحركة أو جانب منها هو إبراز لبطولة الشعب الجزائري الذي لم يرض بالاحتلال الأجنبي، فلم يستكن ولم يسترح يوماً إلا ليعد العدة للنهوض من جديد –دفاعا عن مقوماته– مستمداً ذلك "من تقاليد شعب بطل أحب دائما الفَرَس والبارود، وكان تتابعها (المقاومات) على الأخص في البوادي، حيث الخيل المسَوَّمَة والمجال الفسيح، متوفران لدى

القبائل".[2] كما أننا لمسنا الأهمية الكبيرة التي يوليها الناس في المنطقة الجنوبية الغربية للمأثورات الشعبية التي يتداولونها في تجمعاتهم المختلفة، وما يفتح لديهم من رغبة للإستماع إليها وما يثيره ذلك من نقاش وجدال في بعض الأحيان.

المآثر الخالدة

تعتبر سِيَرُ الأبطال من المآثر الهامة التي تحتفظ بها الذاكرة الشعبية لأنها تحفظ للجماهير الشعبية أسسها الراسخة وعلو شأنها وتميز شخصيتها الفذة.

لقد خلد الشعب الجزائري في جهات عديدة حركة الشيخ بوعمامة في ذاكرته الجماعية وبخاصة في المناطق التي كانت ميداناً لها. إذ لا يزال الناس يقصون عن حركة الشيخ بوعمامة الأخبار المتعددة الواقعية منها والخيالية، ويتغنى الرجال والنساء في تجمعاتهم المختلفة بقصائد ومقطوعات منظومة باعتباره مجاهدا حينا، ورجلا صوفيا صالحا حينا آخر، تُبْرِزُ كلها بطولة الشيخ وصَوَلات رفاقه في ميادين المعارك ضد العدو المحتل. "إن دوافع البطولة التي تَمَيَّز بها البطل في المجتمع العربي كانت دائما نابعة من إيمانه بالقدر وإيمانه بالخلود بالقضية الحية التي يطيب من أجلها الإستشهاد ويحمد فيها الخلود ويستطاب بذكرها الحديث الدائم، وقد دفعه هذا الإيمان إلى أن يخوض الحرب بلا خوف ويصارع الطغيان بلا هوادة وينشد الحرية بلا تردد."[3]

إن البحث في مجال مثل هذه الشخصيات الوطنية والدينية ينبغي أن يقوم على استقراء طويل للمصادر الشفوية والنصوص المكتوبة في آن واحد، وإيراد هذه المرويات بألفاظها تدليل على النتائج المستخلصة منها، إذ أن النص الشفوي أو المكتوب في البحث الأدبي والتاريخي يحل محل التجربة في البحث العلمي.

المناطق التي زرناها

لقد قمنا بجمع هذا النوع من المرويات من بين السكان الذين يعيشون في المناطق التي كانت مسرحا لحركة الشيخ "بوعمامة"؛ أي بين الأفراد الذين شارك أسلافهم فيها أو ممن سمعوا من آبائهم أو أجدادهم ما كان يتداوله الناس عنها، وبخاصة في المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر. وكنا نختار كبار السن من كل قبيلة، حتى تكون الرواية أقرب إلى مصدرها من جهة وأثرى محتوىً من جهة أخرى، واستعنا – أحيانا – في الاتصال ببعض الرواة بأفراد نعرفهم

حتى يكون الاتصال سهلا والحوار بنّاءً. وهكذا زرنا الكثير في منازلهم أوخيامهم؛ حيث سجلنا عنهم ما يروونه عن حركة الشيخ، وهم في غالبيتهم من كبار السن الذين عاشوا أكثر سني عمرهم قبل الاستقلال، حين كانت الحياة اليومية للناس بسيطة، مما سهل لهم الحفاظ على موروثاتهم بعيدا عن تأثيرات العصر من وسائل إعلام ورفاهية عيش وسرعة مواصلات أبعدت المجتمع عن الاستماع إلى ما كان يرويه الأجداد للأبناء والأحفاد. وهؤلاء هم إما من أبناء شهود العيان أو من أحفادهم الذين سمعوا عن الحركة من آبائهم أو أجدادهم أو من مختلف الأفراد الذين شاركوا أو سمعوا من غيرهم، وذلك مباشرة أو عن طريق العنعنة.

وزرنا الأسواق الأسبوعية كسوقي عين الصفراء والأبيض سيد الشيخ، حيث تضم المنطقتان أكبر تجمعين لأولاد سيد الشيخ وللقبائل التي ناصرت الحركة من أتباع "خُدام" الطريقة الشيخية. وكنا نتقدم إلى الواحد من رواد السوق بكل لباقة ونعرض عليه مبتغانا والأهداف المتوخاة من ذلك، وإذا امتنع أحدهم كأن يطلب انتظار الوقت المناسب لعدم ملاءمة المكان والزمان، سهلنا له الأمر بأن نقترح عليه الانزواء في أحد أركان السوق لنسجل ما لديه أو الاستعانة بالسيارة المتواجدة عن قرب.

كما كنا نغتنم مناسبة إقامة موسمي (وَعْدَة) سيدي أحمد المجدوب ببلدة عسلة وسيد التاج ببلدة مغرار التحتاني التابعتين لمنطقة عين الصفراء، لنلتقي بالرواة من رواد الموسمين الذين لهم دراية بتراث الأسلاف، وقد استفدنا كثيرا من ذلك.[4]

وواصلنا التردد على المنطقة الجنوبية الغربية هذه –حيث جرت جل أحداث هذه الحركة– لنتصل بمختلف أفراد القبائل المنتسبة للعائلة الشيخية أو القبائل الموالية لها، والتي وقفت إلى جانب الشيخ بوعمامة. وكنا ننتقل إلى مختلف المناطق بدواً وحضراً لنتصل بهذا أو ذاك من الأشخاص المشهود لهم بالرواية المتقنة وأخبار الأسلاف.

كما زرنا منطقة دلدول بولاية أدرار حيث كان الشيخ لاجئاً (**1883–1894**)، والتقينا هناك ببعض أعيان بلدة أولاد عبو وبكبار السن منهم، وقد تمكنا من الإتصال برجل كان الشيخ مستقرا بدار أحد أسلافه[5]، وقد أمدنا هؤلاء بروايات شفوية مهمة. وكان لِشيخ البلدية دور مهم في جمع هؤلاء لتسهيل الحوار معهم؛ حيث اجتمعنا بهم داخل "القصبة" ببيت الرجل المذكور، وقد شاهدنا هناك "مقام الشيخ بوعمامة"، وهو عبارة عن قبة أقيمت على ذكراه،

بنيت في المكان نفسه الذي كان يقيم فيه الشيخ بوعمامة وأتباعه خارج القصبة، بعد أن ضاقت بهم هذه الأخيرة على إثر التحاق عدة قبائل به هناك. وقام سكان بلدة أولاد عبو بإعادة بناء القبة على إثر ردم الرمال للقبة الأولى وأقاموها فوقها مباشرة. كما يتواجد بالبلدة ضريح السهلي ابن الشيخ بوعمامة الذي توفي في تلك الفترة.

وراسلنا شيخ الزاوية الشيخية ببلدة عين بني مطهر بالمغرب الأقصى، وهو سليل الشيخ بوعمامة؛ حيث كان سيد الطيب بن سيدي بوعمامة، خليفة والده على الطريقة، قد استقر بعد وفاة والده. وقد أمَدنا شيخ الزاوية سي حمزة بن عبد الحاكم[6] بكُتيب عن "ملامح التصوف في فكر الشيخ أبي عمامة" لنجله بلحرمة الذي قدمه كمذكرة تخرج في شهادة الليسانس بجامعة وجدة؛ والذي اعتمد في مذكرته هذه على وثائق أصلية. وقد قابلنا الشيخ بعد ذلك في ماي من سنة **1999**، حين قيامنا بزيارة المغرب، وتمكنا من الوصول إلى الزاوية بصعوبة لبعد مقرها عن بلدة عين بني مطهر بحوالي ثماني كيلومترات في طريق فرعي. وكان وصولنا إلى الزاوية يوم جمعة، وقد حضرنا الدرس الذي ألقاه الشيخ قبل خطبة الجمعة وكان الموضوع فقهيا، وقد أصاب وأجاد وكأنه جده الشيخ بوعمامة يعظ مريديه وأتباعه، خاصة وأنه قصير القامة مثلما يقال عن جده. كما أشرف الشيخ بنفسه على الاختتام بأدعية متوارثة رغم أنه ليس موظفا بالمسجد.

أقمنا في الزاوية مدة يومين سجلنا خلالها رواية شيخها وبعض أتباع الطريقة، وقد أمدنا الشيخ بكتاب عن الضابط الفرنسي "ليوتي" **Lyautey**، وهو عبارة عن رسائل كان الضابط الفرنسي هذا قد بعثها إلى أسرته ورؤسائه، وهي أشبه بتقارير عن أوضاع المنطقة الجنوبية الغربية خلال فترة تواجده بعين الصفراء كقائد لإقليمها العسكري من سنة **1903** إلى **1906**.
وكلف شيخ الزاوية ابنَه "العربي" بمرافقتنا إلى الأماكن التي كنا نود زيارتها كبلدة وجدة وتاوريرت وعيون سيدي ملوك، واتصلنا ببعض الأساتذة ذوي الاختصاص في كل من جامعة الرباط وفاس ووجدة، وزرنا عدة مكتبات ومراكز المخطوطات وكانت النتيجة هامة.

طريقتنا في العمل[7]

كنا نبحث دائما عن الأشخاص الذين شارك أسلافهم في الحركة، وننتقل من عائلة إلى أخرى فنسأل عن الأفراد المشهورين بعملية القص عن الأسلاف، ورغم صعوبة الأمر إلا أننا

تمكنا من الوصول إلى الكثير من هؤلاء. وكان سؤالنا دائما كالتالي: ما هي الأخبار التي تروونها عن الشيخ بوعمامة وكيف كانت مشاركة أسلافكم في حركته؟ فينطلق الراوي في سرد ما يعرفه بكل حرية وطمأنينة إلى أن ينتهي مما لديه. وغالبا ما كنا نطرح على الراوي أسئلة واستفسارات أثناء عملية القص أو بعدها، حول النقط الغامضة التي تحتاج إلى توضيح، أو حول معلومات نريد معرفتها ومعرفة رأي الراوي المعني فيها.

وقد استعملنا آلة التسجيل ذات الحجم الصغير التي تسَهِّل العمل في كل مكان، وإذا ماعدنا إلى البيت نقلنا ذلك التسجيل في كراسات خاصة دون تغيير، مع ترك هامش على اليمين لتسهيل عنونة عناصر المرويات في مرحلة لاحقة.

وكنا نجد– في أغلب الأحوال– كل القبول والترحاب من كبار السن هؤلاء، بل لقد عرض علينا بعضهم أن يمدنا بما لديه من معلومات حول الثورة التحريرية، لأنه شارك فيها، ولكننا كنا نعتذر عن ذلك لأنه لم يكن من مهمتنا في ذلك الحين، وألح علينا أحدهم كي نسجل عنه قصيدة حول ثورة أول نوفمبر ففعلنا ذلك مجاملة له.

ولم نلق أية صعوبة في الاتصال بالرواة الذين قصدناهم، رغم أننا لم نكن نحدد معهم موعدا للقاء، وهم في مجملهم من سكان البوادي والأرياف الذين يتميزون بالبساطة وحسن الاستقبال، ولا يشترطون موعدا ولا مكانا محددا، وقد اعتبر بعضهم دراستنا عملا مفيدا ومحبذا، لأنه مرتبط برجل صالح ومجاهد؛ أما أولاد سيد الشيخ عامة فقد اعتبر الكثير منهم عملنا هذا خدمة للعائلة الشيخية وتسجيلا لموروثاتها وتخليدا لمآثرها.

نوع الرواة

ينقسم الرواة الذين قابلناهم واعتمدنا على مروياتهم إلى قسمين:

أ–رواة لهم علاقة بالأحداث أي شهود عيان، وقد تمكنا من الالتقاء بثلاثة أشخاص جزائريين يتجاوز سنهم القرن، أما الرابع وهو سي الأخضر بن سيد الطيب حفيد الشيخ المستقر حاليا بتاوريرت بالمغرب الأقصى، فقد تجاوز القرن هو أيضا، إلا أنه فَقَدَ الذاكرة وهو لا يتذكر شيئا عن ماضيه. وقد توفي الثلاثة الأوائل، أما الرابع فما يزال على قيد الحياة (أفريل **2004**).

ب–رواة شارك آباؤهم أو أجدادهم في الحركة، وهم من مختلف القبائل الشيخية أوالمناصرة للمقاومة، المتواجدون في الجزائر والمغرب.

وقد لاحظنا أن هؤلاء الرواة يعتدّون في مجملهم بمروياتهم، وهم لا يَرْوونها إلا إذا وجدوا الأذن الصاغية، وكانت الثقة متبادلة بينهم وبين محاورهم، إذ يعتبرونها ذات قيمة جد محترمة، إن لم تكن مقدسة، وبخاصة مايروونه من كرامات. –ولأخبار الثورة التحريرية كرامات– والراوي يؤمن أشد الإيمان بجدية روايته ويوازيها بالتاريخ، أي إعطاء الرواية بعدا واقعيا، أي الدفع بها إلى واقعية صلبة ويقينية تتجاوز مجرد التخمين.

والسند وارد في مرويات هؤلاء الرواة، فمِن أجل إعطاء الرواية مصداقيتها اللازمة يورد الراوي أشخاصا ذوي مكانة في المجتمع وفي دائرة الشيخ، كالمقدَّمين (المقدم هو مساعد شيخ الطريقة) والآباء والأجداد الذين وقفوا إلى جانب الشيخ ورافقوه في تنقلاته وهجراته، ومن أحاديث كبار السن الذين هم أقرب إلى الأحداث من غيرهم من الذين يلونهم في السن. ومن الرواة من يؤكد أنه كان يجالس كبار السن ويستمع إلى أحاديثهم في طفولته وشبابه، وأنه لم يكن يشارك الأطفال لَهْوَهُم وألعابهم.

وقد تمكنا من جمع أكثر من مائة رواية من المناطق التي زرناها والتقينا فيها بالرواة، وذلك في كل من المنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر في ولاية النعامة والبيض وبشار، ومن منطقة دلدول بأدرار، ومن سيدي بلعباس وتلمسان ووهران ومن عين بني مطهر في المغرب الأقصى.

ويتوارى هؤلاء الرواة عن الحياة يوما بعد يوم؛ حيث يتخطفهم الموت وتدفن معهم مروياتهم بلا عودة. وقد توفي بالفعل عدد كبير منهم وبخاصة من تجاوز عمرهم الثمانين سنة حين قابلناهم، وبالتالي فإن ما قمنا به مع هؤلاء هو إنقاذ لجزء من التراث المروي، خزين الذاكرة الشعبية، المنقول أبا عن جد، والذي كان يمكن أن يقبر مع حامليه بلا رجعة.

كما اطلعنا على بعض المطبوعات التي كتبتها فرق من معلمي منطقة عين الصفراء والبيض بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لانتفاضة سنة **1881**، والتي أحيتها السلطات المحلية في المنطقتين وأقيمت أثناءها مهرجانات الفروسية وأمسيات شعرية، وكتبت عنها الصحافة الوطنية آنذاك. ومن أشهر من زارتهم هذه الفرق صحبة الصحفيين، هو أحد "خُدام" الشيخ، والمدعو فراجي المستقر آنذاك ببلدة فَنْدِي بنواحي بني ونيف، والبالغ من العمر قرنا وسبعة عشر سنة (**117**سنة) والذي توفي بعد ذلك في سنة **1983**، لذلك لم نتمكن من مقابلته. وقد اتسمت كتابات هذه المطبوعات بالبساطة وسايرت الرؤية الشعبية التي تجعل بطلها هو المنتصر دائما،

ولم يحسن كتابها استغلال الوثائق التي تحصلوا عليها استغلالا علميا، ومهما يكن من أمر فإنهم مشكورون على جهودهم وحسن نواياهم.

نتائج وملاحظات

نود هنا أن نضيف ملاحظة هامة وهي أنه وبعد مرور فترة من الزمن أصبَحَت لنا نظرة واسعة عن مختلف الأحداث التي يرويها الرواة من خلال ما حصلنا عليه من معلومات ميدانية.

ونتيجة لهذا الإطلاع على الموضوع أيضا، استطعنا أن نصحح بعض الأخطاء التي وقع فيها بعض الكتاب الذين اكتفوا بالوثائق الرسمية الفرنسية مع الاستنتاج منها.

أ- وهكذا تمكنا من أن نعرف من يحمل ثروة معلوماتية ممن يفتقر إليها؛ وتبعا لذلك أيضا اكتشفنا زيف أحد الرواة الذي ادعى أنه شاهِد عيان لحركة الشيخ بوعمامة:

*من خلال المعلومات البسيطة التي يحملها.

*من خلال الأخطاء التي وقع فيها بعد إجاباته عن الأسئلة المطروحة عليه.

*من خلال مظهره الخارجي ومن قامته المنتصبة التي لا تدل على أنه تجاوز العقد التاسع من عمره، فكيف به يشارك في معركة تازينة سنة **1881**! مثلما صرح لنا بذلك، وعكس ما نشرته بعض الصحف الوطنية من أنه تجاوز القرن، وذلك تبعا لتصريحاته هو نفسه.[8]

فمداومة الباحث على العمل في مجال محدد تجعله على دراية كبيرة بموضوعه ومعرفة ببعض الحيثيات المرتبطة بمجال بحثه، مما يساعده، في أحيان كثيرة، على التمييز بين الصادق في القول من المزيف.

ب- حول سي سليمان بن قدور:

ومن ذلك مثلا ما يذكره بعض الكُتاب الذين تعرضوا في كتاباتهم لحركة الشيخ بوعمامة، من أن سي سليمان بن قدور زعيم أولاد سيد الشيخ الغرابة، قد انضم إلى حركة الشيخ بوعمامة حين كان هذا الأخير لاجئا في الجنوب الجزائري، وذلك استنتاجا من الكتابات الفرنسية التي لا تعط التفاصيل الدقيقة عندما يتعلق الأمر بالأحداث المرتبطة بالطرف الجزائري؛ لأن ما كان يهمها هو كل ما يرتبط بالحركة الاستعمارية ويخدمها هي، ولا شيء غير ذلك.

بينما يجمع كل رواة الحركة أن سي سليمان بن قدور كان من أشد المنافسين له في زعامة أولاد سيد الشيخ، وقد اتَهَم سي سليمان الشيخَ بإجبار الناس على اتباعه دون حق، وأنه ليس أهلا للقيادة، وحاول القضاء على حركته باستمالة بعض القبائل التابعة للشيخ بوعمامة، وتمكن هو وقدور بن حمزة من صرف عدد من أتباع الشيخ عنه بعد انتهاء مرحلة الصدام المباشر مع القوات الفرنسية (**1881 –1882**)، وانضم إليهما بعض من كان مع الشيخ، وبقي البعض الآخر معه في واد زوزفانة.[9]

لقد كان هدف هدبن الرجلين هو اصطناع أكبر مايمكن من الخدام والأنصار من بين القبائل التي كانت تدور في فلك أولاد سيد الشيخ؛[10] بينما كان هدف الشيخ بوعمامة نشر الطريقة الشيخية من جهة، ومواصلة الجهاد ضد الفرنسيين من جهة ثانية.

كما يُذكر أن سي سليمان هذا كان قد حاصر زاوية الشيخ بوعمامة في ضواحي بلدة فكيك وتمكن من الاستيلاء على الزمالة بما فيها من متاع وأغذية وذخيرة، بعد أن قرر الشيخ الانسحاب وترك الزاوية بكل محتوياتها منعا لإراقة الدماء والتخفيف من حدة الصراع والتنافس بين أبناء الأسرة الشيخية الواحدة. ويَذكر الرواة أن لالة ربيعة زوجة الشيخ سألَته:

– كيف نغادر المكان ليلا؟، فرد عليها قائلا:

– "قال لها احْنا خرَجْناها بْليْل وسليمان بن قدور يَخرُجْها بَنهَارْ."[11]

ولا تزال إلى اليوم، تلك الحساسية قائمة بين أحفاد هذا وذاك، وهذا ما لاحظناه وسمعناه خلال تنقلاتنا بين القبائل المختلفة في الجزائر والمغرب على السواء.

وقد قتِل سليمان بن قدور على يد البْرَابَرْ من قبيلة أوش–شاون المغاربة بجبل الثلج، الذين خدعوه انتقاما لبعض رجالهم الذين كان قد قتلهم قبل ذلك، ولم يحس سي سليمان بن قدور بالمكيدة إلا بعد فوات الأوان، هو ورفاقه الإثنى عشر فردا في النصف الثاني من سنة **1883**، وبإشارة متفق عليها تم قتل الضيوف.[12]

ج– تسمية "بوعمامة":

يعتقد البعض أن الشاعر الشعبي محمد بلخير وقف إلى جانب الشيخ بوعمامة في حركته، اعتمادا على إحدى قصائده التي يخاطب فيها شخصا يُدعى "بوعمامة"، ونتيجة لهذه التسمية يظن القاريء أو المستمع أن الشخص المعني هو الشيخ بوعمامة المعروف، لكن الواقع أن

بوعمامة المقصود هنا هو عبد القادر بن محمد المعروف بـ "سيد الشيخ" مؤسس الطريقة الشيخية وجَدّ أولاد سيد الشيخ المتوفي سنة 1025هـ/1616م، دفين بلدة الأبيض سيد الشيخ بولاية البيض. ذلك أن سيد الشيخ مثله مثل بقية المشائخ المرابطين والأولياء الصالحين لهم ألقاب وتسميات أطلقها عليهم مريدوهم وأتباعهم شرقا وغربا؛ وإلى جانب لقب "سيد الشيخ" و"بوعمامة" هناك ألقاب أخرى تطلق على هذا الولي وهي: القرْمامِي، زينْ القبابْ، رَحْلْ البَيْضا، مُولْ الفَرْعَة، مول القبابْ سَبْعَة، مول الشهْبَا...[13]

والقصيدة التي وردت فيها كلمة "بوعمامة" هذه هي التي يقول في مطلعها:

يالفارَسْ حَشمْتك عِيدْ الأخبارْ وَاش حالْ القرْمَامِي رَايْسْ القوْمْ؟

والشاعر هنا يأتي بأحد ألقاب سيد الشيخ وهو "القرمامي"، ويفسِّر البيت الثاني والمُوالي منِ القصيدة مَن هو المقصود فعلا بالمدح في هذه القصيدة، من خلال ذِكْره لمسألة هدم القبة التي نفذها الجنرال نيقري في 15 أوت من سنة 1881 انتقاما لهزيمة الفرنسيين في معركة تازينة في 19 ماي من السنة نفسها أمام قوات الشيخ بوعمامة، والتي ما هي سوى قبة سيد الشيخ التي كان المقاومون "من أولاد سيد الشيخ ومن لف لفهم–كما يقول بن منصور– كانوا يتعاهدون تحتها على قتال الفرنسيين."[14] وقد تأثر بهذا الحادث كل أولاد سيد الشيخ وخدامهم، وحتى الذين كانوا تحت السلطة الفرنسية، كما أن الفرنسيين أنفسهم انقسموا إلى قسمين بين مؤيد ومعارض للقضية في الجزائر وفي فرنسا. والبيت هو:

الْيَانَّكْ مَنْ الأبْيَضْ فرْحَة وْتبْشارْ الشيخ اتَّبْنَى وَإلا مازَالْ مَهْدومْ؟

ويبين الشاعر العدد الكبير من قوات العدو التي حضرت لهدم القبة في القصيدة نفسها ويقول:

نوبَة انْ دَارُوا بَالقبَّـــة الكـــفـــار غِيرْ غارْ نخَلْ وَإلا فَرْق جَحْمومْ!

وينعته في بيت آخر باسم "بوعمامة" ويَذكُر جَدَّه أبابكر رفيق النبي في البيت التالي:

بوعمامة مُولَى سَطْـــوَة وْزِيَّـــارْ وابَّاهْ بين كتاب النبي المعصوم.

وفي البيت الموالي يشيد بمشيخة الرجل وبمكانته بين الناس فيقول:

بوعمامة يَعْطِي تسْبيـــحْ الأذكَـــارْ بـــوعمامة سَرَّهْ للنـــاس مَفهوم.

ومن الأبيات التي يستنجد فيها الشاعر بسيد الشيخ في القصيدة نفسها قوله:

أنت مْرَافَقني في صَحْرَا وقِفــارْ وشاذْ اعْلامَكْ بيدِي بيهْ مَحْرومْ
وانت رْفيقي يومْ الحَزَّة والاشوارْ وأنت مْسَلكْني بين القومْ وَالقومْ.

ويتبين لنا من البيت الموالي مَن المقصود بـــ "بوعمامة" بإضافته لِلقب "مول القباب سبعة" في قول الشاعر نفسه:

نَغْدُوا للشيـــخ بوعمامـــة غـــوَّارْ مولْ القبَابْ سَبْعَة راني عْلِيكْ شايَق
الفـــرْعَـــــــــة بالتعْـــــــزَازْ بَرْخامْ وزَليجْ يْبَـــانْ غـــيْر يَبْـــرَق
وعْبيـــده لابْســـيْن مَلْـــفْ تجـــارْ وَلكْسي وبْرَانيسْ حْرير مَن لمزيـــقْ.[15]

"والمعروف أن محمد بلخير (**1835–1905**) هو شاعر مقاومة **1864** ومن مداحي سيد الشيخ، وهو ينتمي إلى إحدى القبائل التابعة روحيا للطريقة الشيخية "خُدام"، وهي قبيلة الرزيقات من الأغواط اكسل. وفي قصائد الشاعر تفانٍ في خدمة سيد الشيخ، فهو يجعله في كثير من الأحيان قربانا أو وسيطا مُهِما عند الله ليقضي مصالح عامة... فبناءُ أغلب قصائده فيها معنى واحدا هو سلطة سيد الشيخ الروحية وتأثيرها على القناعات ومنطق الحياة من خلال قداستها وخوارقها الظاهرة والخفية."[16]

وهو يستنجد به في كل حين وآن، ويَذكره في أغلب قصائده سواء منها الحربية أو البكائية التي قالها وهو في السجن، ففي القصيدة السادسة من كتاب"**Etendard Interdit**" لبوعلام بسايح يبتديء القصيدة بما يلي استنجادا بهذا الشيخ ويقول:

دَبَّرْ عَني يا سلطان كُل امْشالي يا سلاك الواحَل مَن ايْدين الروم
ادعيتك لله الواحد القيوم
دبر عَنِّي يا سيد الشيخ الوالي يا رايس الأقطاب الفارس المعلوم.

ويواصل الأسلوب نفسه في كثير من أبيات القصيدة.

وفي القصيدة السابعة يستنجد الشاعر بسيد الشيخ ويقول:

رجال الله من توات إلى لسطيـــف رَضّـــوا عَني الشيخ سقام الفرسان.

وفي القصيدة الثامنة من الكتاب نفسه يخاطب الشاعرُ سيدَ الشيخ حفيد أبي بكر خليفة النبي قائلا:

يا الرايس ولد خليفـــة البشيـــر لا تمرّب دم اعضاك من جسدي

دبر لي كيما منين كنـــت صغـــير ديـــر فوق ايدين الطايقين ايْدِي.

وفي القصيدة التاسعة يقول:

وانا سيد الشيخ سقام الفرسان بجاهه امْعمر الفرعة.

ويقول أيضا:

ياسيد الشيخ دّوَّرْ عَني والتكْـــل على الله وانت

اعط نـــورك للمغـــني وانعَرْني كي زمان فات.

وفي القصيدة العاشرة المذكورة سابقا والتي يذكر فيها بوعمامة، وقد مررنا على المدح الذي يوجهه لسيد الشيخ، يقول:

أنت ذخيرة قلبي وربيع الابصار وأنت المالكني بعد افرايض الصوم...

وفي القصيدة الحادية عشرة بمنفاه بكالفي يستنجد بسيد الشيخ قائلا:

يا سايلنـــي لا تسَـــوَّلْ خليني في احكام رَبَّ العالمين

نسْتنى كامل الخصايل رحـــل البيضا إمام الصالحين.

ويقول أيضا:

شيخي في ذا البلاد غربة ضاقت روحي اعييت صابر

اتجيني مـــن غير سَبَّـــة ما جابـــك نيـــف لا معـــاير

إذا كنـــا علـــى محبـــة اتعالى كي قبيـــل غايـــر.

وفي القصيدة الثانية عشرة يبتديء بمناداة سيد الشيخ بأحد ألقابه وهو "رَحْل البيضا" ويقول:

رحل البيضا ليه حُرْمْتك عارَك لا تنســـانـــي

جَبنا لك الصُّلاح ويْن طافـــوا فـــي كل بلاد

سَرَّحْني يا سيدي انجي نشوف وطنك وأوطاني

وانسال على الأحباب كان ما زالوا جارك عاد.

ويقول في القصيدة الثالثة عشرة مخاطبا سيد الشيخ بلقب "مول القباب سبعة":

من عند المحبوب ما جـــاني بَشـــار عَجَّل يا ربي يجيـــني وإلا نجيه

مول سَبْع اقباب مَرْكَـــعْ الزيـــار مول السر الطاهر عليَّ رضيه.

وفي القصيدة الرابعة عشرة يفتتح شعره بما يلي:

سيد الشيخ حُرْمتك ليك هربت أنايـَا سيـــدي كـــن مـــعـــــايـــــا

من قاصد شيخ لازم عليه تبان افضـــالُه رحل البيضا بعيد وانا باغي زَوْرَة لُه.

يتبين لنا إذن من خلال القصائد الأربعة عشر التي دَوَّنها بسايح، أن الشاعر يذكر شيخه في تسع منها مادحا أو مستنجدا. أما القصائد الخمس الأخرى فموضوعها الحب والغرام وبالتالي لا مجال لذكر الشيخ فيها. وهكذا نجد أن سيد الشيخ حاضر في أغلب قصائد الشاعر المعروفة، وهو الوحيد الذي يستنجد به.

وبوعلام بسايح، مثلا، لايشير إلى أية صلة مباشرة لمحمد بلخير المترجم له، في كتابه "**Etendard interdit**"، بالشيخ بوعمامة، وإذا ماذكره مع شخص ما فإنه يذكره إلى جانب قدور بن حمزة.

وقد أورد بسايح مثلا القصيدة التي رد بها محمد بلخير على قاضي البيض حين كان متواجد بالجنوب المغربي.[17] فقد أصدر القاضي عطا الله فتوى وصف فيها المجاهدين بـــ"الخارجين عن القانون"؛ وهي تشمل كل مجاهدي أولاد سيد الشيخ ولا تخص حركة الشيخ بوعمامة فحسب، ولكن قيام الشيخ بالحركة زاد الطين بلة للفرنسيين من جهة، ولأن زعيمَيْ أولاد سيد الشيخ الآخريْن كانا مايزالان في حركة معادية للفرنسيين آنذاك من جهة أخرى، من ذلك أن سليمان بن قدور هاجم بعض القبائل الموالية للفرنسيين بعد عودته من المغرب– في الوقت الذي كانت حركة الشيخ بوعمامة على أشدها– واتجه إلى الجنوب من منطقة عين الصفراء ولاحقته القوات الفرنسية؛ ولذلك سارع هؤلاء إلى استصدار مثل هذه الفتوى بعد قيام حركة الشيخ، في الوقت الذي كان الفرنسيون يظنون أن أولاد سيد الشيخ قد انتهى أمرهم. وكان رد محمد بلخير شديدا من خلال قصيدة طويلة منها:

قولوا لعطا الله واش كلفك يا حزين ولاه تشمت في اللي ما لداهم قران

لَعْبَت بـــك الدنـــيا ايامـــها فانييـــن ما اخيار انتايَ وإلا كلاب رحمان![18]

ومما يؤكد ميل محمد بلخير إلى مقاومة **1864** البيت الوارد في القصيدة نفسها التي يذكر فيها أصحاب الضابط بوران **Burin Dubuisson** في قوله:

رانا ضَرْوَك راسْ النجوعْ مَتنزهين ما قعْدوا في الذل إلا أصحاب بوران.

كما أن حمزة بوبكر صاحب كتاب "Un Soufi Algérien، Sidi Cheikh" الذي تحدث فيه كثيرا عن تاريخ أولاد سيد الشيخ وعن الطريقة الشيخية وكل ما يرتبط بها، لايشير هو من جهته إلى مثل هذا الأمر.[19] بل إنه يوضح لنا من جهة أخرى موقف محمد بلخير المناهض لحركة الشيخ بوعمامة، مثله في ذلك مثل زعيمي مقاومة أولاد سيد الشيخ: سي قدور بن حمزة وسي سليمان بن قدور، الذيْن اعتبراه منافسا لهما، وأنه أفسد عليهما أمر الزعامة بصرف أتباع الشيخية عنهما، وبخاصة وأن محمد بلخير كان من رفقاء سي قدور بن حمزة حتى استسلامه سنة 1883؛ حيث يورد صاحب الكتاب المذكور بيتا لمحمد بلخير من القصيدة الميمية المذكورة آنفا؛ يَعْتبر فيه حركة الشيخ بوعمامة السبب غير المباشر في هذا الحادث المهين وهو هدم القبة، وقد جاء البيت مترجما إلى اللغة الفرنسية، حيث أن المؤلف أورد كل القصيدة مترجمة، كالتالي:

Tout cela s'est produit à cause de ces gens qui ont déclenché la guerre sainte sans conviction religieuse، bien que les rigueurs du destin soient inéluctables.[20]

وقد أورد بوعلام بسايح البيت على الشكل التالي:

اسبابْها ذا الناس اللي جات هُجَّار بْلا محبة والوعد قضاه محتوم.[21]

ويذكرأن القصيدة كتبت بالقليعة في 1883–1884، وهذا يعني أن الشاعر لم يكن مع الشيخ بوعمامة. فهو حينا في القليعة (المنيعة حاليا) وحينا في تافيلالت وأخرى في البيض أو في كالفي بالمنفى. ومع ذلك فإن بسايح يرى أن المقصود بـــ "بوعمامة" في القصيدة هو زعيم المقاومة في تلك المرحلة.[22] إلا أننا لا نوافقه على هذا للأسباب المذكورة سابقا. أما سي حمزة بوبكر فيذكر في كتابه "ثلاث شعراء جزائريين باللغة الشعبية"، أن المقصود بـــ بوعمامة في القصيدة هو سيد الشيخ مثله في ذلك مثل قصْدِه بـــ "المير" سيد الشيخ أيضا، ولا يقصد أبدا الأمير عبد القادر مثلما ذهب إليه بوعلام بسايح، وأن هذا الأخير لم يستند على مصدر محدد في هذا الأمر؛ إلا أن الكاتب يثمن عمل بوعلام بسايح المتمثل في كتابه المذكور هذا ويثني عليه.[23]

ومما يزيد من صحة وجهة نظرنا هذه هو ما ذكره الضابط الفرنسي "تريمولي" سنة 1892، الذي استند في تلك الفترة على روايات شعبية من رجال مشهود لهم بالرواية المتقنة عن الأسلاف، أن التسميات التي تطلق على سيد الشيخ عديدة منها: "سيد الشيخ الكبير" تمييزا له

عن سيد الشيخ الصغير أحد خلفه والمدعو بن الدين، وأنه يعرف أيضا بـ"ولد بوبكر الصديق"، و"بوسماحي"، و"الحمياني"، و"العارف" و"المرابط" و"بوعمامة" و"رحل البيضا" أيضا.[24]

وإذا كان البعض يريد ربط الصلة بين محمد بلخير والشيخ بوعمامة للرفع من مكانة هذا الأخير أدبيا، فإن بوعمامة لا تنقصة القيمة الرفيعة التي فرضها ميدانيا منذ 1881 وحتى وفاته سنة 1908. ويكفيه من الشعر ما قيل في حركته من قبل شعراء معاصرين له وبخاصة ما قاله الشاعر الشعبي قدور المهناني في رثائه في قصيدة مشهورة مطلعها:

عزوني يا الناس فـــي شيـــخ العُـــرْبان عزي وعنايتي مفتـــاح أورادي
تبكي عيني على بوعمامة طو ل الزمان تبكي عيني على مْدَكس ميعادي.[25]

وما قاله الشاعر الشعبي البشير الجريري بن أحمد ولد علي:

واجَبْ الشكْران يْواتِي عْلى السّماحاتْ عَندَك لا تجيبْ عْلَى مَن وَإلى وْلا تعَدُّه
شوف يا وَدِّي وينْ اعْقابْـــها اتَّـــلات بوعمامة قاعْ ادَّاها وْجَـــات في ايدُه.[26]

وأما محمد بلخير فقد فرض نفسه في ميدان الشعر الشعبي ونُعِت بـــ"شاعر الحب والحرب". فقد مَجَّد مقاومة 1864 ومدح سيد الشيخ، وكان في كل ذلك بطلا بصوته وسلاحه، ذلك الشعر الذي صمد سنين طوالا من خلال انتقاله بين الشفاه من مكان لآخر بين سكان المنطقة الجنوبية الغربية كلها، إلى أن كانت الثورة التحريرية الكبرى المظفرة التي اندلعت سنة 1954.

أما الرواية الشفوية التي قمنا بجمعها حول الشيخ بوعمامة، فهي لاتتعرض للشاعر المذكور لا من قريب ولا من بعيد. وأما فيلم الشيخ بوعمامة الذي عُرض على الشاشة منذ سنين والذي يجعل الشاعر مصاحِبا للشيخ بوعمامة؛ فإننا نعتبر ذلك عملا فنيا وليس تاريخيا، أضفي على الفيلم مسحة فنية شاعرية، ولذلك وجدنا الشاعر يصاحب الشيخ طيلة الفيلم، يلقي قصائده الحماسية التي قيلت في مقاومة 1864 ويقاتل معه الأعداء، "هو شاعر عضوي وصوت الجماعة الذي تحيا الجماعة به الحاضر كجماعة موحدة عبر نقل هويتها التاريخية."[27]

خلاصة

نستنتج مما سبق أن الإستفادة من الثقافة الشعبية والإتصال بسكان المنطقة موضوع الدراسة مهم جدا ومفيد لكثير من المعلومات التي لايمكن معرفتها إلا بهذه الوسيلة؛ إذ أن الوثائق الرسمية لاتغطي كل الأحداث، وأن الرواية الشفوية كثيرا ما يكون "فيها من الأخبار التي قد تكشف عن الأسباب العظمى الخطيرة أكثر مما تكشف عنه التحليلات التاريخية المنظمة."[28] إن المزج بين المصادر المكتوبة والشفوية يعتبر من أسس الدراسات المضبوطة والقريبة من الواقع التاريخي، وبخاصة ما يتعلق منها بالتاريخ القريب كالمقاومات الشعبية والحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

الهوامش:

1–أنظر مقالتنا: "بيبليوغرافيا حول الشيخ بوعمامة" في العدد الثالث من هذه المجلة، ص: 77.

2–مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق 1986، ص: 20.

3–نوري حمودي القيسي، البطل في التراث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1988، ص: 11.

4–توجد بلدة عسلة شرقي مدينة عين الصفراء بـــ 70 كيلومتر، أما بلدة مغرار التحتاني فتوجد إلى الجنوب منها بحوالي 60 كيلومتر.

5–هو محمدي محمد بن أحمد بن عبد السلام، 75 سنة، فلاح، المقابلة في بلدة أولاد عبو بولاية أدرار في 28 ديسمبر من سنة 1994.

6–هو بوعمامة حمزة بن عبد الحاكم بن الطيب بن بوعمامة، شيخ الطريقة الشيخية الحالي، عين بني مطهر بالمغرب الأقصى ماي 1999.

7–أنظر مقالتنا "الرواية الشفوية والتاريخ" في العدد الأول من هذه المجلة.

8–هو الزناتي العيد ولد محمد، المشهور في بلدة راس الما بولاية سيدي بلعباس بـــ "حفار الآبار"، المقابلة في بلدة شطوان بالولاية نفسها في جوي 1995، توفي الرجل سنة 2002. وقد نشرت جريدة الشعب في أحد أعدادها أن سن الرجل هو 150 سنة، والجريدة كانت متواجدة مع الرجل.

9–أنظر: Charles Robert Agéron، Les Algériens musulmans et la France، imprimerie Tardy Bourges، France 1968. P 65.

10–أحمد مزيان، فجيج، مساهمة في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال القرن التاسع عشر، مطبعة فجر السعادة، المغرب 1988، ص: 488.

11–رواية عدد كبير من الرواة من أولاد سيد الشيخ.

12–عبد القادر خليفي، المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة، أطروحة دكتوراه دولة نوقشت بكلية الآداب اللغات والفنون بجامعة وهران في 2000–2001، ص: 155.

13–نفسه ص: 430.

14–عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، الجزء الثاني، المطبعة الملكية، الرباط 1979.ص:.76

15–جلول يلس والحفناوي أمقران، المقاومة الجزائرية في الشعر العربي الملحون، الشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر 1975، ص: 92.

16- ع. خليفي، المرجع السابق، ص: 430.

17- Boualem Bessaih، Etendard interdit، la bibliothèque Arabe Sindbad Paris 1979. P 78.

18- أنظر: Ibid P/ 138

19- Si Hamza Boubakeur، Un Soufi Algérien Sidi Cheikh، Editions Maisonneuve et larose Paris، 1990. أنظر: 20

Si Hamza Boubakeur، ibid، P/ 253.

21- أنظر: Boualem Bessaih. Ibid P/ 124.

22- أنظر بوعلام بسايح، هامش البيت المترجم إلى الفرنسية: Ibid P/ 92.

23- أنظر: Si Hamza Boubakeur، Trois poètes algériens de langue populaire، Editions Maisonneuve et Larose، Paris 1990، P/ 18 et 19.

24- أنظر: Trumelet c. L'Algérie légendaire، Presses de D. Jouaut Paris 1892، P/ 159 et 160.

25- أنظر سي حمزة بوبكر، المرجع السابق، ص:259. والذي يذكر في ص: 256 أن الشاعر هو المهناي قدور بن لخضر من متليلي، وأنه قال القصيدة بتاريخ 27 رمضان 1326هـ/ الموافق 20 أكتوبر 1908م، فهل نسبة الشاعر لمتليلي تعني أنه من الشعامبة؟ الواقع أننا التقينا بالراوي بن مشيش عبد الحاكم (88 سنة) في شهر أوت من سنة 1996 ببلدة المشرية ولاية النعامة وأخبَرَنا أن قدور المهناي هذا من قبيلة الزغم من أولاد سيدي عبد الحاكم، أي أنه من أولاد سيد الشيخ، وأن هذا الراوي تعلم القرآن على يديه في زاوية الشيخ بوعمامة بعد وفاة هذا الأخير. ويذكر الراوي أن أحفاد المهناي متواجدون في بلدة عين بني مطهر بالمغرب الأقصى، أما بني عمومته الآخرين فهم متواجدون ببلدة تانيرة بنواحي سيدي بلعباس.

26- أنظر الملحق من أطروحتنا السابقة الذكر.

27- عبد القادر جغلول، الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم قسطون، دار الحداثة، بيروت 1984، ص: 161.

28 -عبد الرحمن بدوي، مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، القاهرة 1968، ص: 217.

الجزائريون المقيمون في تونس والثورة التحريرية من خلال كتاباتهم في الصحافة التونسية 1955-1956.

أ./ براهمة بلوزاع

المقدمة: كانت السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية غنية بالأحداث على المستويين الخارجي والداخلي، أدت في نهايتها إلى تغيير جذري للعلاقات التي تربط الدول المستعمِرة والدول المستعمَرة، بل و بين الشعوب في ما بينها، تكرّس التوجه نحو تصفية الاستعمار الذي لم